المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 10-05-2007 العـــدد : 14199
الصفحـات : 36 المسلسل : 147

إيقاع الفنون

د. ناصر الجيلاني

الدحّة في عرعر

▪ لسنوات وأنا أتمنى مشاهدة الرقصة الشعبية المعروفة بـ «الدحّة» على أرض الواقع؛ ولم تتيسر لي الفرصة لذلك على الرغم من كثرة زياراتي إلى مدينة عرعر وما يربطني بها من صلة وثيقة. وكل ما أعرفه عن «الدحّة» هو الوصف الذي كتبه بعض الرحالة أو مقاطع الفيديو القصيرة التي تُعرض بتقنية ضعيفة.

ويوم الثلاثاء الماضي استمتعت بمشاهدة رقصة «الدحّة» التي قدّمها أهالي عرعر ضمن احتفالهم بزيارة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وصحبه الكرام إلى منطقة الحدود الشمالية. وقد كانت تلك الفقرة الشعبية من أكثر الفقرات التي حملت خصوصية ثقافية للمنطقة وتضمنت تعبيرًا عن تراث أهل عرعر الذي يختلفون فيه عن غيرهم.

ومن يتتبع الأهازيج الشعبية في الجزيرة العربية يتضح له أن رقصة «الدحّة» الشعبية مرتبطة بقبائل الشمال وخاصة قبيلة عنزة والرولة. كما توجد هذه الرقصة عند قبائل ومجموعات أخرى تقطن شمال الجزيرة العربية ذكرها الأستاذ سليمان الأفنس في كتاب له عن هذه الرقصة؛ وهناك من يشير إلى وجودها في الكويت والعراق وسوريا والأردن ومناطق في سيناء.

ويبدو أن اسم «الدحّة» مأخوذ من صوت الدّح الصادر من الأشخاص والمتمثل في التصفيق تبعًا لطريقة معينة تتجه فيها الأيدي من الأمام نحو الأسفل ثم تعود للأمام وهكذا تتحرك وفق الحماس المصاحب للعبة، ويرافق التصفيق ترديد صوت «دح، دح» . ولأن الدحّ يعني الضرب بشدّة، ويعني اختلاط الأصوات فإنه يلاحظ أن أصل الرقصة مرتبط بالكشف عن القوّة الجسديّة والمعنويّة. ولهذا كانت تُعرف في السابق بـ«رقصة الحرب» نظرًا لما تحويه من هدير قوي في الصوت ومايرافقها من حركات جسدية سريعة متتالية كان الهدف منها على ما يظهر إما إشعار العدو بالقوّة والغلبة ورفع عزيمة المقاتلين وإمّا التعبير عن النصر بعد انتهاء المعارك.

وتبقى لهذه الرقصة التراثية سماتها الفنية بعد زوال الهدف القديم الذي قامت عليه؛ ومن المهم أن نجد فيها بعض العناصر التي تُعبّر عن القيم الثقافية للمنطقة. فالدحّة تحتوي على الشعر الذي يقوله الشاعر، وعلى ترديد الصفوف بعد الشاعر كلمات أو أبياتاً لإعطائه مهلة للانتقال للبيت التالي. ويلاحظ أن الرد يسير وفق طريقة معينة في الأداء تتسم بالسرعة والجهورية والتوافق الصوتي؛ وتبدأ الصفوف بالتصفيق الخفيف ثم يشتد التصفيق تمهيدًا لتكوين الانسجام بين الأشخاص، ومعه يرتفع الحماس حتى يصل الجميع إلى نقطة توافق صوتية تتضمن الاشتراك في عدد من السمات الصوتية؛ ومنها مايعرف في علم الصوتيات بـدرجـة الصـوت (Tone) مـن حـيث اتّـسـاع ارتـفـاعـه (Amplitude)؛ ونـوع الصـوت (Type) من حيث فخامته ورقته؛ ثم مستوى تردد الصوت (Frequency) من حيث مسـتـوى الضـغـط الصـوتـي الـذي يـتـمـوّج مـابـين زفـيـري (Expiratory) ونطقي (Articulator)، ودرجـة الـنبر pitch) (contour ومايرافق ذلك من تعامل مع الهواء في الفم فيما يـعـرف بـالمدّة الصوتية .(Duration) وعند تحقيق درجة مقبولة من الانسجام الصوتي بين أفراد الفريق فإنهم يدركون ذلك عن طريق الخبرة والممارسة فيسيرون وفق تلك الموجة ويستمرون في الترديد على وتيرة صوتية وحركية متماثلة.

وتشتمل الدحة على فن اللعب بالسيف أو بالعصا والإمساك به من الطرفين ورفعه فوق الرأس ثم النزول به بعد أن يتحرك الراقص في حركات تموجية مبهرة. ولعل ما يلفت الانتباه هو قيام اللاعب بحركات فريدة عن طريق تحريك البشت الذي يرتديه والتلويح به أثناء الحركة السريعة المباغتة وكأنه منحدر من مكان مرتفع. والحقيقة أن طيّ البشت وإطلاقه ليس عشوائيًا بقدر ما نراه منسجمًا مع حركة الذهاب والإياب ومتماشيًا مع الأصوات المصاحبة لتلك الحركات.

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 10-05-2007 العـــدد : 14199
الصفحـات : 36 المسلسل : 147

ومما يمكن ملاحظته في هذه الرقصة أنها تتسم بإيقاع تراتبي ليس سريعًا إذا قورن برقصات أخرى ولكنه إيقاع متلاحق قويّ يشبه هدير الأمواج. وهو إيقاع منسجم مع شخصية الرجل الهادئ في الشمال. ولو تأملنا طبيعة شخصية الإنسان في تلك البيئة لوجدنا أن أبرز مايلفت الانتباه لديه هو سكينته الداخلية والهدوء الذي يبعث على الراحة لمن يتكلم معه. والواقع أن تلك الشخصية العامة لها علاقة بتأثير البيئة الجغرافية على الإنسان: فالأرض في شمال الجزيرة العربية تقل فيها المنخفضات والمرتفعات وتمتد فيها الأرض منبسطة مما جعل إنسان هذه البيئة يشعر بالأمان النفسي لأن عينه ترى الذي أمامه لمسافة كافية؛ ولم يكن معرضًا للخوف مما يمكن أن يتفاجأ به خلف صخرة في جبل أو في منحدر معين كما هي الحال في مناطق أخرى في الجزيرة العربية. ولهذا فقد تركت البيئة الهادئة أثرها على الإنسان وعلى سلوكه؛ فعلى سبيل المثال فإن الشعر الشعبي في الشمال ينحو في الغالب نحو البحور الطويلة والصافية المنسجمة مع التكوين النفسي.

وعلى مستوى السلوك العملي يلاحظ وجود قيم أخلاقية عليا لدى أهل تلك المنطقة منها الثقة بالغير، فليس ثمة مايدعوهم للارتياب والشك في أحد لأن نظرتهم للناس إيجابية. ولأن نفوسهم صافية فإنهم يُعلون من قيمة الضيف ومن أهمية الغريب فيضعونه موضع أنفسهم من حيث الصدق والرجولة والنزاهة؛ وقد فصّل في هذه الخصلة عدد من الرحالة الأجانب الذين زاروا المنطقة في فترات سابقة. ويرتبط بذلك الإعلاء من قيمة الكرم المادي والمعنوي على اعتبار أن الضيف هو هبة من الله جادت به الأقدار ويستحق أن يفرحوا به كما يفرحون بالمطر.

والواقع أن تراث منطقة الحدود الشمالية ومنها عرعر تراث غني في مختلف جوانبه وزاخر بالعناصر الثقافية المميزة لإنسان ذلك المكان؛ ولهذا فإنه يستحق أن يلقى الاهتمام من أبناء المنطقة وبناتها. والمؤمل في وزارة الثقافة والإعلام أن تساعد المنطقة على ذلك كأن تنشئ ناديًا أدبيًا وجمعية للثقافة والفنون وتدعم الموروث الشفهي وتشجّع الباحثين على القيام بالرحلات العلمية إلى تلك المناطق وترشدهم إلى الأماكن والشخصيات المناسبة.